تصورات فلسفيّة في الفكر الصوفيّ

الباحثة زبيدة غلاييني
المغرب

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، " لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون".[1]

إنّ دين الإسلام دين عقيدة وشريعة توجّهنا إلى ما شرعه الله لعباده، وما نهاهم عنه، فهي أحكام واضحة وقواعد منظمة.

كان أول ما لفت نظري، بل ودفعني للكتابة في موضوع التصوّف، كونه يعدّ مسألة نظرية، لا تزال قيد الدراسة والبحث، على الرغم من توالي الزمن وتتابعه في تطوّر تلك الفكرة التي لم يضطلع بها أحد.[2]

إنّ الكتابة في مثل هذا الموضوع، والخوض في الحجة، والغوص في الأعماق لاستخراج دره وكنوزه، والصعود بها إلى من يقفون على الساحل، لأمر شاقّ وسفر طويل، إلّا أنّ من ملك نفسا طويلا، ودراية بأعماق البحار، وحبّا في الغوص، ورغبة صادقة في الأخذ بين من يقفون على الساحل، فضلا عمّن لم يتحرك من بيته إلى الساحل.[3]

فهناك حاجة ملحة وضرورية لإعادة النظر وتوجيهه، صوب تلك الفلسفة، لما نتج عنها من توفيق وتلفيق، فهي فيها ما فيها من مسائل أثيرت، كالحلول التي كانت أقرب إلى الوثنية، فكادت أن تقع في شبهات جمّة ليست بالسهلة.

ولا ننسى بالمقابل أنّ للصوفية دوراً في نشر الإسلام في أرجاء المعمورة، فالتصوّف دخل في إطار فلسفيّ واسع، وكذلك فإنّ المتصوّفين بذلوا مجهودات، وقدّموا لنا الكثير من الكتب باعتماد المنهج الجدليّ.

وعلى الرغم من تردّد من هم الأفضل علما وعملا في الخوض في مسألة كتلك، إلّا أنّه لا بد من الكشف عن الحقيقة، وكشف زيف من حاول تشويه تلك المسألة.

ومن البيّن أنّه لا تتمّ الاستقامة، ولا يستوي الكمال المعرفيّ، إلّا بالاستقراء، والاستقصاء لمواطن الحق ومواضع الخير.[4]

مفهوم الفكر الصوفي

لم يتفق الدارسون والباحثون القدامى والمحدثون على تحديد موحد للمفهوم الاصطلاحي للتصوّف، وهذا راجع إلى اختلافهم حول ماهيته، فهم يرون أنه يشتمل على أحوال ومقامات، ويتضمّن أخلاقا، ويهدف إلى سلوك الطريق الموصل إلى الله، وفقا للاجتهادات الخاصة التي يتخذها كل منهم في هذا السبيل.

فهناك من يعرّف هذا الفكر بأنه (بدايات الطريق)، والآخر يعرّف انطلاقا من الغاية والهدف (نهاية الطريق)[5] ، فهذا ابن عجيبة يرى أن التصوّف " علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل".[6]

وهناك من اجتهد فرأى أنّ التصوّف أخلاق ومناجاة القلب والروح، فمن كان يريد تطهير قلبه والسموّ به حيث الطهارة، فعليه بالغوص فيها.

ومنهم من قال أنّ التصوّف هو الصحبة الصالحة مع الله بحسن الأدب، ودوام المراقبة. [7]

أمّا البغدادي فقال: " علامة الصوفي الصادق، أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العز، ويخفى بعد الشهرة، وعلامة الكاذب العكس.[8]

ومهما حاولنا جمع تعريفات لذلك الفكر، سنجد أنّ معظم تعاريفه يكتنفها الغموض والعمق. لذا فهم مهما اختلفوا وتباينوا في تعريفاتهم، إلّا أنهم جلّهم وكلّهم يلتقون في التعبيرات الوجدانيّة، تلك التعبيرات التي لا يمكن التعبير عنها إلا بالذوق.

فالتصوّف ليس دينا كلّه ولا أدبا كلّه، ولا فنّا خالصا، ولا فلسفة كله، إنّما هو مزيج من كلّ ذلك.[9] ، وهذا يتوافق مع قول القرضاوي: " لقد تبيّن لي من خلال التجربة العمليّة، والممارسة الميدانيّة مع عوام المسلمين، ومع مثقفيهم، ومع الغافلين منهم، ومع العاملين في الجماعات الإسلاميّة المختلفة، أنّ الجميع أفقر ما يكونون إلى تربية إيمانية صادقة، تغسل قلوبهم من حب الدنيا، وتأخذ بأيديهم إلى الله تبارك وتعالى.[10]

لكنّ أقرب ما قيل من تلك الأقوال، هو قولهم أنّ الصوفيّة مأخوذة من الصّفاء والصفو، لصفاء أسرار أصحابها، ونقاء آثارهم.،[11] ويمكننا القول إنّ الصوفيّة ليست انفصالا عن الواقع بقدر ما هي فهم عميق للذات.

ظروف نشأة الفكر الصوفي

لما شاع الانسلاخ عن الدين الإسلامي والتحوّل عنه، أخذت غيرة الصحابة على دينهم وخشيتهم من الله، فأرادوا ضمان دوام ذكره عزّ وجلّ، فنزعت الطائفة الصوفيّة، خاصة من بداية الانحدار والانحلال، وما شاع من تفسخ في عصر الخلافة العباسية، أي من بداية القرن الثالث للهجرة، إلى حين شاع ذلك الانحلال.

وقد تميّزت الصوفيّة في بدايتها بالبساطة، فمال الصوفيون إلى الزهد، الذي كان ردّة فعل لما انتشر في ذلك العصر من مجون، وحب للدنيا، ومن أولئك النفر أبو العتاهية وهو أكبر مجانّ القرن الثاني الهجري، فقد كانت شكوك الزندقة تحوم حوله، وعلى الرغم من ذلك نجد له شعرا زهديا لا يخلو من ابتكارات جديدة، وعواطف دينية، وأفكار زهدية حقيقية، وتأملات في الحياة والموت. [12]

ويتفق جميع المؤرخين، على أنّ التصوّف نشأ وترعرع في العراق، حيث برزت هناك أسماء كبرى أسهمت في تأسيسه، منها: داود بن نصير الطائي، رابعة العدويّة، وغيرهما الكثير.[13]

وقد تطوّر الزّهد من جهدٍ فرديّ إلى حركة منتظمة، أخذ فيه المتصوّفون يتحدثون عن السلوك والمقامات، وكان هناك نوعان من التصوّف: أحدهما سنيّ تقيّد بالكتاب والسنة وهو التصوّف المقبول، أمّا الثاني فكان فلسفيّا يمتزج فيه الذوق بالنظر العقلي، وهو ما تحدث عن الحلول والاتحاد، وهذا النوع مرفوض، وهذا النوع رفضه وحاربه جمهور أهل السنّة، الذين أيدوا النوع الأول الذي يدور حول الزهد والتقشّف باعتباره تربية للنفس. [14]

فأكثر جمهور أهل السنّة من إنشاء المساجد، وعملوا على الإكثار من حلقات العلم، مما أدّى إلى زيادة الزّهّاد، وطغيان الزهد باعتباره الطبقة الأولى من الصوفيّة[15]، وأخذوا ببناء زوايا وأمكنة للعبادة، ومدارس العلم، فلبسوا الصوف وابتعدوا عن مظاهر الترف[16].

وبعدها تعرضت الصوفيّة إلى تطوّرات كبيرة، فتشعب منها مذاهب وطرق جمّة، فمن هذه الطرق من أراد أن يقطع الناس عن الشهوات، ومنهم من اتخذه ثورة، فغدا مقاتلا ومحاربا للظلم والكفر، ومنهم من أخذه سبيلا ووسيلة لنشر الدعوة الإسلاميّة بين الأمم الوثنيّة.[17]

وبرأيي بما أنّ التصوّف نابع من الروح والباطن، فلا حدود زمنية محددة له.

التصوّف في العصر الإسلامي

أضاء الإسلام بنوره الجزيرة العربيّة وفارس والشام، وسرعان ما امتدّت يده المضيئة هادية محرّرة.[18]

يرى بعضهم أنّ مفهوم التصوّف استحدث بعد عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم –، والصحابة رضوان الله عليهم، أي لم يكن معروفا تصوفّا من قبل، فكانت النسبة في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم– إلى الإيمان والإسلام، فيقال مسلم ومؤمن، ثم استحدث اسم زاهد.[19]

لكن لنا في رسول الله أسوة حسنة، فقد كان زاهدا في أكله وشربه ولباسه، وكان لباسه الصوف وهو لباس الفقراء والمساكين، كما أن للرسول أنماطا خاصة بالعبادة، كتعبّده وحيدا في غار حراء، حيث كان يكثر الاستغفار والاعتكاف فيه.

إذن، فحريٌّ بنا أن نبحث عن أصول التصوّف في الإسلام، والكتاب والسنّة، وليس من المعابد الهنديّة، والصوامع الفارسيّة، كما أراد بعض المستشرقين أن يقنعوا المسلمين، بأنّ التصوّف ليس من الإسلام في شيء، حيث يعتقد الكثيرون أنّ التصوّف هو الكمال في الدين، والبعض يعتقدونه أعلى درجات الإسلام، ممّا أدّى إلى تأكيدهم على أنّ الصوفيّة وأولياء الله يتمتّعون في حياتهم وأعمالهم بصفة خاصّة، وبذلك لا يرون أحدا أعلى منزلة من المتصوّف غير الرسول – صلى الله عليه وسلم– وصحابته رضوان الله عليهم.[20]

ونرى القرآن الكريم واضحا جليّا، يحمل بين طياته العديد والكثير من الآيات القرآنية التي تحثّ على التصوّف، أو تحمل ذلك في معناها الباطني، حيث قال تعالى: " وأقيموا الصلاة وآتوا الزّكاة"، فهنا دعوة إلى الالتزام بظاهر العبادة، أمّا قوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا اصبروا"، فتلك دعوة باطنيّة، إذن فالتصوّف الإسلاميّ حثّ على الالتزام بظاهر العبادات وباطنها، " فالأعمال الباطنيّة فيه تعادل الظاهريّة، والأخيرة هي نفسها التي تخدم الإنسان في تزكية باطنه"،[21] حيث قال تعالى: " يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم".

لكنّ بعض الصحابة بالغوا في العبادة، فمنهم من كان يصوم نهاره ويقوم ليله، ويشدّ الحجر على بطنه، تربية للنفس وتهذيبا للروح.[22]

ومن أجل اكتمال صورة الصوفيّة في الإسلام لا بدّ من أن نعود قليلا إلى عصر الجاهليّة، لما يحمله هذا العصر في طيّاته من معانٍ صوفيّة، ظهرت على ألسنة حكمائه، فهذا قسّ بن ساعدة كان حكيما جاهليا زاهدا، داعيا الكافرين إلى ترك عبادة الأوثان، محذّرهم من عقاب الله، داعيا إياهم إلى التوحيد، مؤكّدا على وجود الله تعالى.[23]

فضل الصوفيّة في نشر الإسلام

لقد حمل المسلمون رسالة الإسلام بمفهومها الشموليّ إلى كافّة أرجاء المعمورة، فكان هدفهم ألا يهملوا ركنا واحدا من أركان هذا الدين، فمضوا به شعلة للناس كافّة، قال صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك".

لقد قام المتصوّف بجهود عظيمة في نشر الدين الإسلامي منذ أول القرون، فنشروه في الماليبار، وجزر المالديف، والمويلا، ومن أوائل من قام بنشره مالك بن دينار، كما قام الشيخ الصوفي نادرشاه بنشره في الهند. [24]

ومن أهم الطرق الصوفيّة في نشر الإسلام وأقواها حماسا، الطريقة القادريّة،[25] حيث قام أتباعها بنشر الإسلام عن طريق التجارة، وعن طريق التعلّم، فكانوا يرسلون أذكياء أبنائهم وتلامذتهم إلى مدارس القيروان وطرابلس، وأخذوا يتعلمون ويدرسون، ثمّ يتخرّجون أساتذة مجازين، كما كان رجال الصوفيّة يمثّلون القضاء في حل المشاكل بين القبائل.

كذلك فقد كان للصوفيّة فضل في نشر الإسلام في السنغال، ومالي، والنيجر، وغينيا، وغانا، ونيجيريا، والتشاد. فكانت الزوايا والرباطات التي أسّسها شيوخ هذه الطريقة بؤرات لنشر الدعوة الإسلاميّة بين الشعوب الوثنيّة في غربي القارة الأفريقيّة وقلبها.،[26] ويعود مردّ ذلك وفضله إلى اختلاط الصوفيّة بالطبقات الشعبيّة، وعيشهم بين العامّة والفقراء، مما أبدى لهؤلاء نماذج حيّة تتصف بالتقوى.[27]

وقد عمّ الإسلام في تلك المنطقة، بفضل شجاعة هؤلاء الرجال وتفانيهم، وتواضعهم، وإخلاصهم، حيث كان هؤلاء الشيوخ المخلصون يسلكون أوعر المسالك في سبيل نشر الدين الإسلاميّ.[28]

إنّ البلاد الإسلاميّة من أقصى البلاد إلى أقصاها، تؤثّر فيها الدعوات الصوفيّة، وأعمال الصوفيّين، فإذا قاموا بحقّ الدعوة، استجاب الناس لهم، إن كانوا مخلصين.[29]

أعداء التصوّف

هناك العديد من الذين طعنوا في التصوّف الإسلامي، وهاجموه، واتّهموه بالكثير من الأكاذيب، والادّعاءات، والافتراءات، حيث رموه بالكفر والزيغ، لكن ما الدوافع والبواعث التي حالت دون سلوكهم هذا في الكذب والافتراء؟

هناك عدّة احتمالات واردة: فإمّا أن يكون دافعهم لذلك كرههم وعداوتهم للإسلام، أو أن يكونوا جهلة بحقيقة التصوّف.

أمّا القسم الأوّل: فهم أعداء الإسلام من الزنادقة والمستشرقين، وأذنابهم الذين صنعتهم الصليبيّة الماكرة، والاستعمار البغيض، لطعن الإسلام، ودكّ حصونه، وتشويه معالمه، وبثّ سموم الفرقة والخصام بين أبنائه، وقد كشفهم محمد بن أسد الذي هو بالأصل مؤلّف نمساويّ، اعتنق الإسلام، وانصرف إلى ترجمة القرآن.[30]

والصّنف الثاني هم الذين أخذوا فكرتهم عن التصوّف من خلال سلوك البعض من الدخلاء والمنحرفين من أعداء الصوفيّة، دون أن يفرّقوا بين التصوّف الحقيقي الناصع، وبين الوقائع المشبوهة التي تصدر عن الدخلاء، ولا تمّت للإسلام بصلة.[31]

وهناك قسم خُدعوا بما وجدوا في كتب السادة الصوفيّة، من أمور مدسوسة، أو مسائل دخيلة، فأخذوها على أنها حقائق ثابتة، دون تحقيق أو تثبّت.[32]

إذن فأعداء التصوّف هم علماء الكلام، الذين رفعوا أعلام العقل، مقابل الصوفيّة الّتي رفعت علم وشعار القلب، إذن فأعداء الصوفيّة هم أهل الظاهر، الّين يرفضون التصوّف كونه تجربة روحيّة، فهم لا يؤمنون بالروح. [33]

ومن أهمّ دوافع الرافضين للصوفيّة، أنّهم يرون التصوّف بدعة، استنادا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " من أحدث في أمرنا ما ليس منه، فهو عليه ردّ"، لكنّ سدنة الصوفيّة يدافعون عن صوفيّتهم، ويواجهون تلك الادّعاءات، بأنّ التصوّف طريق موصلة إلى الله، وهذه الطريق هي طريق الحقّ.

ومن أشهر الرافضين للتصوّف أبو البقاء بن عقيل، وابن الجوزي.[34]

الحلول والاتحاد في الصوفيّة

لقد شذّ عن طريق الصوفيّة الصحيحة جماعات مزيّفة، قالت بالحلول والاتّحاد، الّذي يعني: شهود الوجود الحقّ المطلق، الّذي الكلّ موجود به، فيتّحد به الكلّ في هذا المشهد، من حيث أنّ كل شيء موجود به، معدوم بنفسه، لا من حيث أنّ له وجودا خاصّا اتّحد به،[35] والحلول يعني: حلول الألوهيّة بالبشريّة، أو البشريّة بالألوهيّة. [36]

لكنّ الاتّحاد أشدّ من الحلول، لأنه اعتقاد ذات واحدة بخلاف الحلول، ثمّ إنّ القول بأنّه اتّحد في كلّ شيء أعظم من القول بأنّه اتّحد في بعض مخلوقاته، وبالجملة فإنّ اعتقاد الحلول والاتّحاد اعتقاد ظاهر البطلان، وقد جاء الإسلام لمحوه من عقول الناس، لأنّه اعتقاد مأخوذ من مذاهب، وفلسفات وثنيّة، هنديّة، ويونانيّة، ويهوديّة، ونصرانيّة، وغيرها، وجميعها تقوم على الدّجل والخرافة.[37]

- إضاءة على نظريّة الاتّحاد والحلول في الصوفيّة:

إنّ أشهر من قال بالحلول والتّحاد: الحلّاج، وهو من مواليد فارس، وكانت نشأته في (شوشتر)، وقد تتلمذ فيها على يد سهل بن عبد الله، ثمّ مضى متنقّلا في حياته من بلد إلى بلد، ثم رحل إلى بلاد خراسان، وفيها أظهر الكرامات، وأفشى ما اختلج في ضمائر الناس، فلقّب بحلّاج الأسرار.[38]

وقد ظهر في أبياته الشعريّة الّتي كان يقولها الحلول والاتّحاد والامتزاج، بحيث لم يعد له وجود، بل إنّ وجوده، ووجود الألوهية صار واحدا، لا تفريق بينهما، فنجده يقول: رأيت ربي بعين قلبي، فقلت: ومن أنت؟، فقال: أنت، فليس للأين منك أين، وليس أين بحيث أنت.[39]

وقال مصرّحا عن فنائه عن ذاته، وعن حلول محبوبه فيه:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللن بدنا

ومن العلماء من كفّر الحلّاج، ومنهم ابن تيمية، حيث يقول: " من اعتقد ما يعتقده الحلّاج من المقالات التي قتل فيها، فهو كافر مرتدّ باتّفاق المسلمين، فإنّ المسلمين إنّما قتلوه على الحلول والاتّحاد، ونحو ذلك من مقالات أهل الزندقة، كقوله: إله في السماء، وإله في الأرض، كما كان للحلّاج مخازيق، وأنواع من السّحر، وله كتب منسوبة إليه في السّحر، فهو كافر مباح الدّم، وعلى ذلك قُتل الحلّاج".[40]

الشّطحات الصوفيّة

الشّطح الصوفيّ من أكثر ما اختلف في قبوله وردّه، فهو ظاهرة غريبة مخالفة للشريعة، ولا بدّ من تحكيم العلم والبحث، للحكم على تلك الظاهرة، وما يتولّد عنها.

وظاهرة الشّطح هي كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه، مقرونا بالدعوى،[41] وهو عبارة مستغربة عن وصف وجد خاص بقوته، وهّاج بشدّة عليائه وغلبته.

أمّا الجرجاني فيقول: " إنّ الشّطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة، ودعوى تصدر عن أهل المعرفة، باضطرار واضطّراب، وهو زلات المحققين، فإنه دعوى يفضح بها العارف، لكنه من غير إذن إلهي"[42]

ويقول الطوسي بأنّ الشطح " ظاهرها مستشنع، وباطنها مستقيم".[43]

ومن أشهر من قالوا بالشّطحات الصوفيّة أبو يزيد البسطامي، واسمه الفارسي با يزيد،[44] لقد قال البسطامي بوحدة الوجود، ونُسبت إليه بعض الشّطحات، كقوله: " سبحاني ما أعظم شأني"[45] ونقل الناس عن أبي يزيد السطامي قوله: " رفعني مرّة، فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد إنّ خلقي يحبون أن يروك! فقلت: زيّني بوحدانيّتك، وألبسني أنانيّتك، وارفعني إلى آحديّتك، حتّى إذا رآني خلقك، قالوا رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا."[46]

وذُكر عنه قوله: " أول ما صرت إلى وحدانيّته، فصرت طيرا جسمه من الأحديّة، وجناحاه من الديمومة، فلم أزل أطير إلى أن صرت في ميدان الأزليّة، فرأيت فيها شجرة الأحديّة"،[47] ونُقل أنه قال: " سبحاني، سبحاني".[48]

وإذا ما انتقلنا إلى الحلّاج، فإنّنا نعثر له على أبيات تتجلّى فيها الشطحات الصوفيّة بأبهى صورها إذ نجده يقول:

مزجتُ روحكَ في روحي كما تُمزجُ الخمرةُ بالماءِ الزّلال

فإذا مسّكَ شيءٌ مسّني فإذا أنت أنا على كلّ حال[49]

والسؤال الذي يراود المتعمّق في الصوفيّة: إذا كانت هذه العبارات تُسمّى شطح وهذيان، فلماذا يؤوّلونها ويفسّرونها؟

لقد جاء الشّطح بمثابة اعتذار وتبرير من الزنادقة، ليبرروا أنّ من قالوه كانوا في حالة سكرى، وهناك من قدّم العذر لأصحاب الشطحات، كابن خلدون، الذي اعتبرهم أهل غيبة عن الحسن، فالواردات تملكهم حين ينطقون بما لا يقصدون، وعلى رأيه، فإنّ صاحب الغيبة غير مخاطب، والمجبور معذور.[50]

الفناء عند صوفيّة المسلمين

إنّ موضوع الفناء من الموضوعات الرئيسة للتصوّف الإسلامي، بل هو المحور الرئيس الذي تدور حوله نظرياته المختلفة.

لقد اعتبر الصوفيّة أسمى أنواع الفناء ذلك الذي يعود من الصوفيّ إلى حال البقاء، فلا يستغرقه الفناء ولا يستهويه، بل يعود إلى البقاء ليحفظه من الزلل، وينجيه.

لكنّ مفهوم الفناء في العقيدتين اليهوديّة والمسيحيّة، كلّها اتّجاهات نبذها الإسلام.[51]

والفناء في اللغة مصدر الفعل: فني يفنى فناءً إذا اضمحلّ وتلاشى وعدم، وقد يطلق على ما تلاشت قواه وأوصافه، مع بقاء عينه.[52]

أمّا الغزالي فيقول في الفناء: " لست أعني بفناء العبد فناء جسده، بل فناء قلبه، ولست أعني بالقلب اللحم والدم، بل سرّ لطيف له إلى القلب الظاهر نسبة خفيّة، وراءها سرّ الروح، الذي هو من أمر الله عزّ وجلّ.[53]

لكنّ الصوفيّة قالوا عن الفناء: هو أن تبدو العظمة والجلال على العبد، فتنسيه الدنيا والآخرة، والدّرجات والأحوال والمقامات والأذكار، وتغنيه عن كل شيء، عن عقله وعن نفسه، وعن فنائه عن الأشياء، وعن فنائه عن الفناء، فيغرق في التعظيم. [54]

وتشير الكثير من الدّراسات إلى أنّ أبا يزيد البسطامي، كان أوّل من تحدّث عن الفناء، وأعطاه مفهوما واضحا بالمعنى الدقيق، فقال إنّ الفناء يعني محو النفس عن آثارها، والبعض الآخر كالسلمي قال إنّ أوّل من تحدّث عن الفناء الخرّاز، فهو كان يؤكد فناء الأشياء، بارتباطه بذكر الله في قلبه، لكنّ الثوابت التاريخيّة ترجّح أبا يزيد البسطامي، ويتضح ذلك جليّا كون المفهوم استخدم في القرنين الثالث والرابع الهجريين أي زمن أبي يزيد البسطامي.[55]

ويمكننا القول إنّ الفناء عند الصوفيّة هو خلاص الإنسان من نزعاته وأهوائه وإرادته الخاصّة، فيكون كلّ فكره وعمله لله وبالله، فإذا فنيت إرادة الفاني في إرادة الحقّ، وكانت إرادته إرادة الحقّ، فما يريد الحقّ شيئا إلّا يريده العبد، ولا يريد العبد شيئا إلّا أراده الحقّ.[56]

والفناء عند الصوفيّة حالا عارضا لا يدوم للصوفيّ، لأنّه لو دام، لتعارض مع أدائه لفروض الشرع. [57]

والفناء عند صوفيّة المسلمين ناحيتان: سلبيّة، وهي الّتي تكلّم فيها في القرن الثاني الهجري أبو يزيد البسطامي، وناحيّة إيجابيّة، وهي الّتي تكلّم عنها الخرّاز، وتكلّم فيها من بعده الصوفيّة المتمسّكون بظواهر الشّرع.[58]

وحقيقة الفناء تلخّص الآية القرآنيّة: "كلّ من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام". [59]

التصوّف والاستشراق

تطرّقت في هذا الجانب إلى بيان دوافع المستشرقين في دراسة الإسلام وحضارته، حيث قاموا بربط التصوّف الإسلامي بمثيله في الديانات الأخرى، كاليهوديّة والنصرانيّة، " فقد زعم بعض المستشرقين أنّ متصوّفي الإسلام، قاموا بتقليد رهبان النّصارى، وأنّ عنصر الحبّ مفقود في الدين الإسلامي"،[60] ونطعن بقولهم استنادا إلى قوله تعالى: " قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله".

والمستشرقون هم الباحثون والكتّاب الغربيّون الّين يكتبون عن الفكر والحضارة في الإسلام، [61]وهم الّين يحاولون بدراساتهم إيجاد طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق، مبنيّة على منزلة الشرق الخاصّة في أوروبا، كما أنّ الشرق ساعد على تحديد الغرب بوصفه صورتها وفكرتها وشخصيتها وتجربتها المقابلة.[62]

وقد كان للمستشرقين دوافع للتعمّق والدخول في الفكر الإسلامي أهمّها:

1. الدافع الديني: فكان همّهم الطعن في الإسلام باعتباره دينا همجيّا لا يستحق الانتشار.[63]

2. الدافع الاستعماري: فعندما انتهت الحروب الصليبيّة، اتّجه الغرب غير يائسين لدراسة شؤون البلاد، وتحديد مواطن القوّة والضعف، لإقصاء اللغة العربيّة الّتي تجمع أمما وألوانا وأجناسا شتّى.[64]

وهناك دوافع علمية وسياسيّة واقتصاديّة، لا مجال لشرحها في هذا البحث.

وقد كان للمستشرقين موقف من التصوّف الإسلامي، فقد جذب التصوّف اهتمام المستشرقين، فتعدّدت دراساتهم حوله، وأثارت دهشتهم الشخصيّات المشهورة في هذا المجال، أمثال رابعة العدويّة وغيرها، ومن هؤلاء المستشرقين: لويس ماسينون.، [65]ومن أهمّ المستشرقين الذذين كتبوا في ذلك: جان شوفيلي، في دراسته عن التصوّف، أمّا نيكلسون فقال إنّ التصوّف هو المنطقة الّتي تلتقي فيها النصرانيّة بالدين الإسلامي.[66]

ومنهم من قارن بين المنظور الإسلامي واليهودي والنصراني، فتوصّل إلى أنّ الله في الإسلام واحد لا نظير له، وليس مجموعة أرباب، وليس واحدا بين مجموعة آلهة.[67]

وقد استدلوا على استنتاجاتهم بآيات قرآنية، منها قوله تعالى: " وما أرسلنا قبلك من رسول إلا لنوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون".[68]

فكلّ مستشرق نظر إلى التصوّف بعينه التي تختلف عن غيره من المستشرقين، فمنهم من اقتصر على اجتهاداته، ومنهم من جاء بأدلته من القرآن الكريم.

الروحانيّة الإسلاميّة

إنّ الابتلاءات والمحن التي تصيب الإنسان بمثابة فرصة لتوطيد، وتأكيد قيم التوكّل على الله، والاستسلام لأوامره، ففي ذلك كلّ الفضيلة، ويتوجّب علينا أن نتناول الجانب النفسي في شريعتنا ثمّ نأخذ منه القيم الخالدة، فعندما يملأ الحزن قلوبنا، ونجد الضيق في صدورنا، نلجأ إلى القرآن الكريم، ففيه الهداية والسكينة، والطمأنينة، وكلّ ما لا نتوقّع، وما نحتاج.

يقول ابن حزم، وهو عالم مسلم أندلسيّ: " بحثت عن هدف مشترك بين الناس، اتفقوا أن يكافحوا من أجله، فلم أجد سوى أنّ جميعهم يقهرهم الحزن".[69]

نحن في عصر ماديّ، وهذا يقتضي منّا أن نقابله بفكر مكافئ، وبحيويّة روحيّة عالية، ونحن في عصر شهوانيّ، يقتضي أن نقابله بأشواق روحيّة راقية، مع تأمين الشهوات المباحة، وإبقاء منافذها مفتوحة.[70]

ومن هنا كان الاهتمام بالجانب الروحي في التصوّف، وكتابة الكتب عنه، والخوض فيه والجدل، فجاءت الصوفيّة ردّا على من ينكر وجود علم التصوّف، فهذا ردّ على غلاتهم الذين لا يتصوّرون سيرا إلى الله، بدون سير على يدي أهل الطريق.[71]

لقد اشتهر المتصوّف محي الدين بن عربي في الخوض في الروحيّة خاصّة، وروحيّة الكون عامّة، فقد كان يقول إنّ العالم ما هو إلّا خيال، والموجود الحقيقي هو الله فقط.

لقد جلبت له هذه النظريّة كلّ النقد والتجريح، مع أنّه لم يكن هو من ابتدعها، وإنّما تسلّلت إليه عن طريق قراءاته المتعدّدة، إذ إنّ لها أصلا في الإبراهيميّة، والكونفوشيّة، والأفلوطينيّة.[72]

والصوفيّة ليست الطواف حول القبور، أو الصياح، أو لبس الثياب المرقّعة، إنّ التصوّف حقّا هو إصلاح القلوب، وهو منهج كامل متكامل، لا صلة له بالمعاني الخاطئة، والتصوّرات المغلوطة، فمرجع التصوّف الكتاب والسنّة، ومراقبة الله، مصداقا لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك".

التصوّف في فلسطين

يعدّ التصوّف في فلسطين امتدادا للتصوّف في العالمين العربي والإسلامي، مع وجود خصوصيّة للصوفيّة في فلسطين، لاعتبارات تتعلّق بروحانيّة المكان، خاصّة وجود الأماكن المقدّسة، الّتي يعتزّ بها المسلمون في العالم أجمع، وكذلك الظروف السياسيّة الّتي يمرّ بها أبناء الشعب الفلسطينيّ.[73]

وبسبب قدسيّة فلسطين، وارتباطها بحادثة الإسراء والمعراج، فقد نالت هذا الشرف، فهي أرض الأنبياء والصالحين.

وبما أنّ فلسطين تأثّرت كجزء من العالم العربي والإسلامي بكلّ ما عصف وحلّ بها من تيارات فكريّة، وفلسفيّة، واجتماعيّة، وسياسيّة، فكان من الطبيعيّ أن تمتدّ إليها الطرق الصوفيّة الّتي برزت فيها بقوّة. ولكن يُعتقد أنّ الصوفيّة في فلسطين بصورة عامّة امتداد للماضي، ويؤكّد ذلك وجود المتصوّفين في القدس الشّريف، ووجود المكتبات، مثل مكتبة الشيخ محمد بن الخليلي، وهو من شيوخ الطريقة الصوفيّة القادريّة.[74]

ولا بدّ من الحديث عن بعض البدع التي يقوم بها المتصوّفون، فالأصل أن يكون ذلك زهدا وورعا، ولكن تطوّرت أحوالهم، فأحدثوا بدعا ومنكرات، فهم يتعبّدون بالدفوف والطبول، ومنهم من يستغيث بالأموات، وهذا شرك، فلا ينبغي أن يُنعت هؤلاء بالعلماء، بل بالجهّال.

وختامًا كيف نرجو أن يفهم الأوروبيون روح ديننا وهو الدين الوحيد الذي يكفل السعادة الكاملة، ما داموا لا يعرفون غير بعض مظاهر الإسلام الخارجيّة الّتي يشاهدونها كلّ يوم، مثل الحشود السائرة خلف الرايات والطبول، والاحتفالات المستهجنة المنافية لكلّ منطق أخلاقي، كالاحتفال بالمولد النبويّ.

الخاتمة

ممّا سبق تبيّن لنا أنّ التصوّف حالة وجدانيّة جذورها ممتدّة من القرآن الكريم، فليس كلّ منتزع من الدين بدعة، بل إنّ عهد التصوّف قديم، وكان يعبّر قديما عن أهل الصلاح، والحكمة، والنقاء، والصفاء، فكانت الناس كمن يحمل مصباحا، يمشي في الأسواق ليبحث عن الإنسان الكامل المتكامل فلا يلقاه، فهو العارف الصامت، وآخر المعرفة الصمت.

وقد تجلّت الصوفيّة في " من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت"[75]

كما أنّ للمتصوّفة في فلسطين أبعادا في صوفيّتهم، فهو الأساس الميتافيزيقي، أو هو النظريات الفلسفيّة، الّتي يحاول الصوفيّة وقت صحوتهم تفسير ما وجدوه حال سكرتهم.

وهناك تصوّف فلسفيّ خارج عن الروح الإسلامية، وهو الذي ارتادته التيارات الفلسفيّة والشيعيّة، من غالبة وأمشاج، وأشهرهم البسطامي والحلّاج.

وكانت هناك ردّة فعل دائمة للتطرّف من قبل المدرسة السنيّة ضد غير السنيّة، فالمدرسة السنيّة مرجعها آل البيت، فالغزالي مثلا كان ردّ فعل لمدرسة الحلّاج، وكانت مدرسته خالدة، وركبها سائر حتّى الآن.[76]

وكما قال العلّامة الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ولعلّه أبرز ما قاله الجنيد، الملقّب بسيّد الطائفة: " التصوّف استعمال كلّ خلق سنّي، وترك كلّ خلق دنيّ".[77]

ولا بدّ لنا من ذكر بعض انحرافات المتصوّفة عن الدين، فقد حرّموا على أنفسهم ما لذّ وطاب من الطعام والملبس، حتّى النساء، لكنّ الرسول الكريم كان يأكل الحلوى واللحم، وحبّب الله إليه من الدنيا الطيب والنساء. فكان لا بدّ من ذكر ذلك حتى لا يُقال أنّ كلّ ما كان عليه الصوفيّة المتقدّمون حقّا وصوابا.[78]

الهوامش:

1 القرآن الكريم: سورة الأعراف، آية 43

2 محمود، عبد القادر: الفلسفة الصوفية في الإسلام، ص

3 يوسف، فرج: التصوّف الإسلامي، ص 3

4 أبو الفيض المنوفي، السيد محمود: معالم الطريق إلى الله، ص 4

5 حلمي، مصطفى: أعمال القلوب في الصوفية وعلماء أهل السنة، دار الدعوة للنشر، ص 10

6. ابن عجيبة: ص 4

7.القشيري، أبو القاسم: الرسالة القشيرية، ص-138-139

8 .حلمي، مصطفى: أعمال القلوب في الصوفيّة وعلماء أهل السنة، ص 11

9 عياد، أحمد توفيق: التصوّف الإسلامي، ص9

10. يوسف، فرح: التصوّف الإسلامي، ص9

11. داود، ماهر محمود: قراءة في كتاب (تأملات في الصوفية الجمالية) لجواد العقاد،

12 ينظر: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري،

13 الإسلام الصوفي العراقي: مجلة ميزوبوتاميا، جنيف

14 ينظر: الذهبي، محمد حسين: التفسير والمفسرون، ص20-2

15 التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر، ص26

16 الزوبي، ممدوح: الطرق الصوفيّة-ظروف النشأة وطبيعة الدور، ص23

17 ينظر: المرجع نفسه: ص

18.الخفاجي، محمد عبد المنعم: التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر، دار العهدة الجديدة للطباعة، ص 13

19 ابن الجوزي: تلبيس إبليس، دار العلم، بيروت، ص- 156-157
20 الزوبي، ممدوح: الطرق الصوفيّة، ص12
21 المرجع نفسه: ص 15
22 المرجع نفسه: ص22
23 ينظر: الزوبي، ممدوح: الطرق الصوفية، ص
24 ينظر: الزوبي، ممدوح: الطرق الصوفيّة، ص
25 المرجع نفسه: ص26
26 الحمراني، أسعد: التصوّف: منشؤه ومصطلحاته، بيروت، 2000، ص15
27 بدوي، عبد الرحمن: تاريخ التصوّف الإسلامي، الكويت، ص25
28 الإسلام الأسود:
29 أبو زهرة، محمد: الدعوة إلى الإسلام، ص 87
30 الإسلام على مفترق الطرق (بحث شبح الحروب الصليبيّة)، ص52
31 ينظر: بحث في الصوفيّة وأدعياء التصوّف، ص449
32 بحث الدس على العلوم الإسلاميّة، ص898
33 بهجت، أحمد: بحار الحب عند الصوفيّة، ص9
34 قوشتي، أحمد: نقد التصوّف،
35 الجرجاني: التعريفات، ص6
36 الغنيمي، أبو الوفا: مدخل إلى التصوّف، ص123
37 ينظر: الحمد، محمد بن إبراهيم: مصطلحات في كتب العقائد، ص42-47
38 محبوب القلوب (مقالة في أحوال الإسلام والعلماء)
39 أخبار الحلّاج: ص 56
40 ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ص 184
41 ابن تيمية: مجموعة الفتاوى، ج2، ص 48
42 البسطامي، أبو يزيد: شطحات صوفيّة،
43 الجرجاني: التعريفات،
44 الطوسي: اللمع، 357
45 موقع أعيان الصوفيّة
46 العلبكي: أعلام الموارد، ص 106
47 الطوسي: اللمع، ص461
48 المرجع نفسه: ص161
49 المرجع نفسه: ص 464
50 المرجع نفسه: ص 376-380
51 تاريخ ابن خلدون: المكتبة المدرسيّة، ط، 3
52 داود، عبد الباري: الفناء عند صوفيّة المسلمين والعقائد الأخرى
53 ابن القيم الجوزيّة: مدارج السالكين، ج1، ص 118
54 الغزالي: إحياء علوم الدين، ج2، ص288
55 داود، عبد الباري: الفناء عند صوفيّة المسلمين، ص 154

56 ينظر: داود، عبد الباري: الفناء عند صوفيّة المسلمين، ص156-157
57 الترمذي: ختم الأولياء، ص 473
58 التفتازاني، أبو الوفا: محاضرات في التصوّف الإسلامي، ص 79
59 نيكلسون: في التصوّف الإسلامي وتاريخه، ص 119
61 التصوّف والاستشراق:
62 القرآن الكريم: سورة الرحمن، آية 26-27
63 مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي، ص 167
64 سعيد، إدوارد: الاستشراق، مؤسسة الأبحاث العربية، ص37
65 السباعي، مصطفى: الاستشراق والمستشرقون، ص15-16
66 المرجع نفسه: ص53
67 العقيقي، نجيب: المستشرقون، ص263-264
68 نيكلسون، رينولد: تراث الإسلام، دار الطليعة، بيروت، ص 306
69 ديركسن، جيرالد: الصليب والهلال، دار اليمامة، ص19-58
70 القرآن الكريم: سورة الأنبياء، آية 25
71 ابن حزم: أعلام وسير، ص76
72 حوى، سعيد: تربيتنا الروحيّة، ص10
73 المرجع نفسه: ص10
74 الروحيّة عند محي الدين بن عربي: مكتبة النهضة المصرية، ص 461
75 الجفري، الحبيب علي: صلاح القلوب، دار الروضة، ص6
76 قاسم، سهير: الطرق الصوفيّة وتراثها في فلسطين، ص7
78 ماغليري، لورا: دفاع عن الإسلام، ص122
78 المرجع نفسه: ص 68